رسائل تلّغرافيّة
(١٧)

وَيْحَكُمْ!!!

فَذَاكَ مِيراثُ مُحَمَّدٍ ﷺ

بَلَّغَهُ

الدكتور ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

● **مقدمة المقالة:**

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ، **أما بعد:**

فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٥):

«لقد كان في قصص الأمم عبرة وفكرة وتذكرة لأولي العقول، وما كان هذا القرآن حديثًا يُفترىٰ ولكن تصديقَ، وتفصيلَ كلِّ شيء مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والشرائع والأحكام». اهـ

وقال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان» (ص٤٧):

«قوله: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأنَّ من فعل مثلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضًا ما للَّه من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه اللَّه الذي لا تنْبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإنّهم -بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإبْشَاره- يحصل لهم الهدىٰ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجِلِ تحصلُ لَهُم الرحمة». اهـ

قلت: لما ذكرَ رَبُّ العزَّة قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن في الكثير من السور منها: الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، والنحل، والكهف، وطه، والأنبياء، والمؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، وسبأ، وغيرها من السور، ومنها: الأعراف فقال تعالىٰ بعد ذكر قوم نوح، وعاد، وهود، ولوط، وشعيب: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٩٣):

«يقول تعالىٰ مُخْبِرًا عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أُرسِل إليهم الأنبياء بالبأساء والضرَّاء، يعني: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلىٰ اللَّه تعالىٰ في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدّة ليتضرّعوا، فما فعلوا شيئًا من الذي أراد اللَّه منهم، فقلب الحال إلىٰ الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: حوّلنا الحال من شدّة إلىٰ رخاء، ومن مرض وسقم إلىٰ صحة وعافية، ومن فقرٍ إلىٰ غنًىٰ، ليشكروا علىٰ ذلك فما فعلوا. وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: حتىٰ كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالىٰ: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبُوا إلىٰ اللَّه، فما نَجَعَ فيهم هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسّنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرجاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم

الدّهر، وإنما الدهر تارات وتارات، ولم يتفطّنوا لأمر اللَّه فيهم، ولا استشعروا ابتلاء اللَّه لهم في الحالين، وهذا خلاف حال المؤمنين الذين يشكرون اللَّه علىٰ السرّاء، ويصبرون علىٰ الضراء، كما ثبت في «الصحيحين»: «**عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي اللَّه له قضاءً إلّا كان خيرًا له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**» [رواه مسلم في «صحيحه» (٢٩٩٩)].

فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه اللَّه به من السرّاء والضراء، ولهذا جاء في الحديث: «**لا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يخرج نقيًّا من ذنوبه، والمنافق مَثَلُهُ كَمَثَل الحمار لا يدري فيم رَبَطه أهله ولا فيم أرسلوه**» [رواه الترمذي في «سننه» (٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٢١٦٣٣، ٩٧٧٣) بلفظ مقارب] أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة؛ أي: علىٰ بغتة منهم وعدم شعور منهم؛ أي: أخذناهم فجأة كما في الحديث: «**موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر**». اهـ

قلت: رواه أبو داود في «سننه» (٣١٠٨)، وقال المنذري في «مختصر السنن» (٦/ ٢٢) علىٰ هامش «عون المعبود»: وحديث عبيد هذا أخرجه أبو داود ورجال إسناده ثقات، والوقف فيه لا يؤثر، فإن مثله لا يؤخذ بالرأي، وكيف وقد أسنده مرةً أخرىٰ الراوي». اهـ

• **قلت**: ثم أتبع ربّ العزة هذه الآيات من سورة الأعراف بآيات أخرىٰ في هذا السّياق فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ

يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [الأعراف: ٩٦-١٠١].

قال السعدي في «تفسيره» (ص٢٩٨):

«لما ذكر تعالىٰ المكذبين للرسل يُبتلون بالضراء موعظة وإنذارً، وبالسّراء استدراجًا ومكرًا، ذكر أن أهل القرىٰ لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدّقته الأعمال، واستعملوا تقوىٰ اللَّه تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، بترك جميع ما حرّم اللَّه، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدّ ولا نصب، ولكنّهم لم يؤمنوا ويتقوا، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلّا فلو أخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك عليها من دابّة، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: المكذّبة؛ بقرينة السياق ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: في غفلتهم وغرّتهم وراحتهم ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: أي شيء يؤمّنهم من ذلك؟! وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعض الهلاك؟! ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويُملي لهم إن كيده متين؟! ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فإنّ من أَمِن مِنْ

عذاب اللَّه فهو لم يصدق بالجزاء علىٰ الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

● **وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، علىٰ أنّ العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا علىٰ ما معه من الإيمان، بل يزال خائفًا وَجِلًا أن يُبتلىٰ ببليّة تسلب ما معه من الإيمان، وأنْ لا يزال داعيًا بقوله: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك»**، وأن يعمل ويسعىٰ في كل سبب يُخلّصه من الشرّ عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس علىٰ يقين من السلامة.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أوَ لم يتبيّن ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك مَن قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟ أوَ لم يهتدوا أن اللَّه لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سُنّته في الأولين والآخرين؟!

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: إذا نَبَّهَهُم اللَّه فلم ينتبهوا، وذكرّهم فلم يتذكّروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن اللَّه تعالىٰ يعاقبهم ويطبع علىٰ قلوبهم، فيعلوها الران والدّنس، حتىٰ يختم علىٰ قلوبهم فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الذين تقدّم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين». اهـ

● **بداية الدخول في موضوع المقالة وعلاقته بالمقدمة وبيان أصولها:**

فإذا تقرّر عندك ما مضىٰ بدليله وتفسيره فإن بداية القول في هذا البحث هو نتاج هذه المقدمة، ومن ثم فاعلم جلالة الأمر، وعظم عواقبه، ومدىٰ تأثيره، وعليه أقول:

(١) روىٰ الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ١٨٨)، وابن حبان في

«صحيحه» (١٢٢)، وذكره الهيثمي في «مَجْمَع الزوائد ومنبع الفوائد» (١/ ٤١١/ حديث ٧٧٩)، وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح» كتاب العلم، باب في العمل بالكتاب والسنة، من حديث أبي شُرَيح الخُزاعيّ رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أليس تشهدون أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟**» قالوا: بلىٰ، قال: «**فأبشروا فإن هذا القرآن طرفُهُ بيد اللَّه وطرفُهُ بأيديكم، فتمسّكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا**». **قلت**: هذا الحديث أصل النجاة للأمة وهو أصل العلوم كلها.

(٢) **وروىٰ البزار في «مسنده» (١٢٣)، والطبراني في «الكبير» (١١١١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»** حديث (٧٩٤، ٧٩٥) في كتاب العلم، باب منه في اتباع الكتاب والسنة ومعرفة الحلال من الحرام من حديث أبي الدرداء قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**ما أحلّ اللَّه في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من اللَّه عافيته، فإن اللَّه لم يكن لينسىٰ**» ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

قال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في «الكبير» وإسناده حسن ورجاله موثقون». **قلت**: وهذا الحديث بيان لصفة التمسك بالكتاب والسنة وهي امتثال الأمر واجتناب النهي.

(٣) **وروىٰ الطبراني في «الأوسط»** ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي حديث (٨٢٢) باب فيمن يستحل الحرام أو يُحرّم الحلال أو يترك السنة، من باب العلم من حديث عبد اللَّه بن عمر أنه سمع النبيّ ﷺ يقول:

«**إنّ مُحَرِّمَ الحلالِ كمُحِلِّ الحرام**».

قلت: وهذا الحديث كشف وتفصيل للبيان.

(٤) ثم روىٰ الطبراني ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي (٨٢٤) من حديث أبي جحيفة قال:

كان رسول اللَّه ﷺ قاعدًا ذات يوم، وقدّامه قوم يصنعون شيئًا يكرهه من كلامهم ولغطًا، فقيل: يا رسول اللَّه ألا تنهاهم؟ فقال: «**لو بعثت إليهم فنهيتهم أن يأتوا الحجون لأتاه بعضهم، وإن لم يكن له به حاجة**». والحجون: جبل بمكة، وهي مقبرة، والمعنىٰ المراد كما في المثال: «لو نُهيتم عن البَعْر لرغبوا في تفْتِيتِه»، والبَعْر: غائط البهائم، وهو تنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، ولذلك قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(٥) وذكر الهيثمي أيضًا حديث (٨٣٤) الذي رواه الطبراني في «الأوسط» وقال: رجاله موثقون من أهل الصحيح، من كتاب العلم باب في الإجماع من حديث عليّ بن أبي طالب قال:

قلت: يا رسول اللَّه إن نزل بنا أمرٌ ليس فيه بيان أمرٍ ولا نهي فما تأمرُنا؟ قال: «**شاوِروا فيه الفقهاء والعابدين، ولا تمضوا فيه رأي خاصة**».

(٦) ثم ذكر الهيثمي حديث (٨٤٠) الذي رواه الطبراني في «الكبير» وقال: رجاله موثقون، من حديث ابن عباس عن النبيّ ﷺ:

«**ليس أحدٌ إلا يُؤْخَذ من قوله ويُدَعُ، غير النبي ﷺ**».

قلت: أما الحديث الأخير هذا فهو الدليل علىٰ الإجماع الذي نقله غير واحد بنفس نص ومتن الحديث، وهو من الأحاديث التي لا يعلم الكثير من الناس أنه

دليل هذا الإجماع وهو غير مشهور، وهذا الحديث هو العمدة في نبذ التعصب الممقوت.

قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٢٢٧):

«اتفق المسلمون علىٰ أنّ كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول اللَّه ﷺ، وإن كانوا متفاضلين في الهدىٰ والنور والإصابة». اهـ

(٧) ثم ذكر الهيثمي حديث (٨٤١) باب في القياس والتقليد، وهو ما رواه الطبراني في «الكبير» والبزار وقال: ورجاله رجال الصحيح من حديث عوف بن مالك عن النبي ﷺ قال:

«تفترق أمتي علىٰ بضع وسبعين فرقةً أعظمها فتنة علىٰ أمتي، قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال».

(٨) ثم ذكر الهيثمي باب السؤال عن الفقه حديث (٧٥٥) قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» وفي «الكبير» بتمامه ورجاله رجال الصحيح، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

«لقد عِشتُ بُرْهة من دهري، وإنّ أحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة علىٰ محمد ﷺ فيتعلّم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلّمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالًا يُؤتىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلىٰ خاتمته ما يدري ما آمِرُهُ ولا زَاجِرُهُ، وما ينبغي أن يقف عنده منه، وينثره نثر الدّقل»، والدّقل: هو رديء التمر.

(٩) ثم ذكر الهيثمي ما رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون كما قال من حديث ابن مسعود موقوفًا عليه قال:

«إني لأَحْسِبُ الرجلَ ينسىٰ العلم كما يعلمه للخطيئة يعملها».

قلت: فإن من أسباب العلم التقوىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعلىٰ ذلك قول ابن عمر في الحديث السابق قبل هذا: «ما يدري آمِرُهُ ولا زَاجِرُهُ»، وفيه بيان العلم النافع المفصّل، كما بيّنتُهُ في مقالة مُفصَّلة.

(١٠) وروىٰ الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٥١) وإسناده حسن كما قال الهيثمي، حديث (٥٠٥) باب فضل العلم والمتعلم عن أبي هريرة أنه مّر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: «يا أهل السُّوق ما أعجزكم؟» قالوا: وما ذاك يا أبي هريرة؟ قال: «ذاك ميراث رسول اللَّه ﷺ يُقسَّم وأنتم ههنا، ألا تذهبون فتأخذون منه؟» قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد»، فخرجوا سِرَاعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا فقال لهم: «ما لكم؟» قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئًا يُقَسَّم! فقال لهم أبو هريرة: «وما رأيتم في المسجد أحدًا؟» قالوا: بلىٰ رأينا قومًا يُصلّون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم فذاك ميراثُ محمد ﷺ».

قال ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢٠٤):

«ويح: فيه: قال لعمّار: «**ويح ابنِ سُمية تقتلُهُ الفِئة الباغية**» [رواه البخاري (٤٤٧) في «صحيحه»] ويح: كلمة تَرَحُّم وتَوَجُّع، يقال لمن وقع في هلكة». اهـ

قلت: والمراد بقول الإمام العالم أبي هريرة: وَيْحَ أُمَّةِ محمدٍ، تقتلها الجهالةُ، وقلةُ العلم، والإعراضُ عن الكتاب والسنة، ومذاكرة المسائل الشرعية، والتحقيقُ والتقصّي لمناحي العلوم وفنونِها من الأصول والفروع،

ومفاتيح العلوم، والتفقُّهُ، واعتبارُ القواعدِ العلميةِ والأسسِ الشرعيةِ والدعائمِ التي يقوم عليها الاستقرارُ المعرفيُّ الفهميُّ الإدراكي، والنظرُ إلىٰ منظومةِ الأسبابِ والشروطِ والعللِ والموانعِ، والتفعيلُ العمليُّ لكل ذلك، مع الوعي بلوازِمِ ومقتضياتِ كل هذه الشئونِ والأمورِ، وما يترتبُ عليها من الحلالِ والحرام، والحدودِ والأحكامِ الشرعيةِ، وكذلك العقليةِ التي هي علىٰ وَفْقِ العقلِ الصحيحِ المستقيمِ علىٰ الكتابِ والسنةِ، والفرقانُ بين السنةِ والبدعةِ، والحقِّ والباطلِ، والهدىٰ والضلال، والإلمامُ بدروب الأهواء والشهواتِ وإدراكِ عواقبهما، وتأثيرِهما علىٰ فساد الدين والدنيا، مما يؤدي إلىٰ ظهور الفساد في البرّ والبحر، وعلىٰ رأسِها تفشّي ظاهرةِ الخروج علىٰ الحكام، أصلُ كل بليّة في كل زمان ومكان، وضرورةُ فَهْمِ وفقهِ فسادِ العلاقة بين الحاكم والمحكوم والتي بها تضطّرب البلاد والعباد، ويهْلِكُ الأخضر واليابس، وغير ذلك ممّا لا ينحصر القول فيه لتشعُّبه وتفرّق ضروبه المتباينة المختلفة، التي ترتكز علىٰ وجوه الإعراض عن العلم والتعليم. «ويحكم!!! فذاك ميراث محمد ﷺ».

وكل ما ذكرت من معنىٰ أثر أبي هريرة رضي الله عنه من المفاهيم الكلّية، فإنه لا يستقيم إلا بما بدأتُ به هذه المقالة من آيات سورة الأعراف وشرحها وبيانها؛ لأربط بينها وبين ما رتّبت عليه كلامي من الأحاديث التي ذكرتها من كتاب العلم عند الإمام الهيثميّ من «مَجْمَع الزوائد ومنبع الفوائد»، وقد انتقيت هذه الأحاديث انتقاءً وتبيانًا، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وعلىٰ ضوء ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٨٣):

«وقد تقدم معنىٰ التقوىٰ، وكان اللَّه عالمًا بأنهم يتقون أم لا يتقون؟ فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضًا، فإذا اتقىٰ العبد ربّه -وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه- وترك الشبهات مخافة الوقوع في المُحَرَّمات، وشحن قلبه بالنيّة الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفيّ، والظاهر بمراعاة غير اللَّه في الأعمال، والركون إلىٰ الدنيا بالعفّة عن المال، جعل اللَّه له بين الحق والباطل فرقانًا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانًا.

قال ابن وهب: سألت مالكًا عن قوله ﷻ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال: مخرجًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

- قال ابن إسحاق: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ فيصلًا بين الحق والباطل.

وقال السّديّ: نجاة، وقال الفرّاء: فتحًا ونصرًا». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٧):

«وهذا التفسير من ابن إسحاق أعمّ مما تقدم، وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقىٰ اللَّه بفعل أوامره وترك زواجره، وُفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره، ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه -وهو محوها- وغفرها: ستْرها عن الناس- سببًا لنيل ثواب اللَّه الجزيل، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨]». اهـ

قلت: وهذا النور هو: العلم الشرعي النافع القائم علىٰ الكتاب والسنة،

المُفصَّل علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، والإعراض عن الآراء التي تخالف النصوص والأدلة الشرعية، والأقوال القائمة علىٰ الأهواء والشهوات، وانظر كتابي: «**قيام الحجة الرسالية وموانعها**»، وهو علىٰ موقعي «بي دي إف»، فإنه مُهمّ بإذن اللَّه.

ومن أدل ما يبرهن علىٰ ذلك: الآيات والأحاديث والإجماعات علىٰ وجوب وفرضية العلم بين التعلّم والتعليم والجدّ والنصب فيه لأنه النجاة بإذن اللَّه.

ومن أشملها: الحديث الذي جمع له السيوطي خمسين طريقًا وصححه بها من حديث رسول اللَّه ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**».

وانظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي (٤/ ٣٤٨-٣٥٠) الأحاديث (٥٢٦٤-٥٢٦٧)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي حديث (٦٥٨)، وكلام أهل العلم عن الحديث، و«جامع بيان العلم وفضله» الباب الثاني: طلب العلم فريضة، وفيه زُبْدة ما قيل في الحديث سندًا ومتنًا، دراية ورواية لابن عبد البرّ.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

وروىٰ الأئمة: الدارميُّ في «مقدمة سننه» (٩٦)، واللالكائيّ (١٣٦، ١٣٧)، في «شرح أصول الاعتقاد»، والعكبري في «الإبانة الكبرىٰ» (١٦٢، ١٦٣)، عن

الزهري قال:

«كان من مضىٰ من علمائنا يقولون: «الاعتصام بالسنة نجاة، والعلمُ يُقبض قبضًا سريعًا، فنعش العلم ثبات الدنيا والدين، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله».

- «وَيْحَكُمْ!!!

فذاك ميراث محمد ﷺ»

وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، والحمد للَّه ربّ العالمين.

بلَّغه

الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة